الفلسفة والايديولوجيا

د.سنوسي فضيله[1]

لم تسلم الفلسفة من الانتقادات والاتهامات منذ القدم، ولغاية يومنا هذا، فقد قيل عنها أنها مجرد ثرثرة لا طائل منها، وأنها تؤدي إلى الكفر والإلحاد، وأنها غارقة في الميتافيزيقا والمثالية، لا صلة لها بحياة الإنسان وواقعه، ولكن المتتبع لتاريخ تطور الفكر الفلسفي يتضح له جليا أن الفيلسوف وعلى مر العصور عالج قضايا تهم الإنسان في وجوده وترتبط بواقعه وحياته، فقد بحث في أصل الخير والشر، وفي معايير السلوك الأخلاقي كما بحث في معنى الواجب والحق وعلاقتهما بالعدالة، وتناول بالحديث سبل تحقيق السعادة والسلم، كما قدم تصورات لأهم النظم السياسية والاقتصادية الكفيلة ببناء مجتمع فاضل يرقى بالمستوى الإنساني...الخ، والملاحظ ها هنا تناوله أن جل ما تناوله الفلاسفة يؤكد حقيقة لا يمكن إنكارها آلا وهي أن الفكر الفلسفي لا ينفك عن الواقع، وأن الفيلسوف إنما ينطلق في تفكيره من الواقع، فيعرض حال المجتمعات وما هو سائد فيها من قضايا تحتاج النقاش ومشاكل تتطلب حلولا، فهو بهذا لا يكفي بعرضها وإنما يسعى إلى تقديم تصورات حول الحلول المناسبة بها.

وبهذا فان الفلسفة ليست مجرد تنظير للمفاهيم، بل هي الثقافة الروحية للإنسان وهي أساس التفكير السليم، ولا احد ينكر فعالية ما أنتجته الفلسفة من مفاهيم وتصورات، فهي بما تنتجه تمثل شكلا من أشكال الوعي الاجتماعي الذي يظهر في كل مجتمع وفي كل حقبة تاريخية، والتفكير الفلسفي هو ممارسة اجتماعية واقعية كما عبّر عن ذلك **زاموشكين سولوفيوف موتروشيلوفا** في قوله:" إن الفلسفة هي أسلوب للنشاط النظري في حقيقة الأمر إلا أنها نشأت، وتنشأ بالتأكيد على أساس قضايا الممارسة الاجتماعية التاريخية وتمارس عليها تأثيرا هائلا "[(1)]، كما يؤكد على علاقة الفلسفة بحياة الإنسان وواقعه في قوله:"... والفلسفة بوصفها تصورا مركبا و معللا علميا عن القوانين الأعم للطبيعة والمجتمع والتفكير البشري، تحدد في الوقت ذاته موقف الناس من الطبيعة والمجتمع والتاريخ، وكذلك من أنفسهم بالذات ومن نشاطهم الذاتي وأفكارهم الذاتية، وذلك هو السبب في أن الفلسفة تعتبر في الوقت ذاته شكلا للتوجه الحياتي، فهي تضطلع بدور الدليل الروحي في حياة الناس وفي نشاطهم التطبيقي والمعرفي"[(1)]، وفي نفس الاتجاه، يؤكد علماء الاجتماع وعلى رأسهم **مانهايم** على ارتباط الفكر (الفلسفة) بالواقع الاجتماعي، حيث يقول **مانهايم** في كتابه (الايديولوجيا واليوتوبيا):"... إن الأفكار تتوقف توقفا تاما عل السياق

---

[1] باحثة في الفلسفة جامعة محمد بن احمد وهران 2

[(1)] زاموشكين سولوفيوف موتروشيلوفا: الفلسفة والعملية الثورية ، تر: د/ فهد كم نقش، دار التقدم للترجمة، موسكو 1982، ص2.

[(1)] زاموشكين سولوفيوف موتروشيلوفا، المرجع السابق، ص9.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التاريخي والاجتماعي وتبعا لذلك، فإنه ليس المهم آن نعمد إلى دراسة الفكر المجرد، أو العقل الخالص، بل المهم بالأحرى آن نقف على الظروف الاجتماعية الفعلية التي عملت على ظهور هذا التفكير أو ذلك الإنتاج العقلي"[2]، وكما ذكرنا أنفا فانه و من الاتهامات الأخرى التي وجهت للفلسفة منذ ظهور المذاهب الفلسفية في العصر الحديث وإلى غاية اليوم، هو أن الفلسفة مجرد إيديولوجيا يسعى كل فيلسوف، آو كل منظومة فلسفية إلى فرضها على الأخر، والجدير بالذكر أن هذا الاتهام ظهر في مرحلة تاريخية أخذ فيها مفهوم الايديولوجيا معنى سلبي بفعل من الإمبراطور الفرنسي **نابليون**، وطبعا فإن هذا الاتهام فيه من المغالاة ما يبطله، إذ هو اتهام يخلط بين المفهومين الفلسفة والايديولوجيا، مما يستدعي منا توضيح وتحديد أوجه التماثل والاختلاف الموجود بينهما، ثم توضيح معالم المحطة التي تتحول فيها الفلسفة إلى إيديولوجيا، ولكن قبل هذا وذاك وجب الإشارة إلى المعاني والدلالات التي عرفها مفهوم الايديولوجيا عبر التاريخ، وكذا علاقة هذا المفهوم بالفكر الفلسفي خلال هذه الحقبات التاريخية.

فما هي الدلالات التي عرفها مفهوم الايدولوجيا عبر التاريخ؟ وما علاقة هذا المفهوم بالفلسفة؟ ومتى تتحول الفلسفة إلى إيديولوجية؟

تشير بعض الدراسات " أن أول ظهور لمفهوم الايدولوجيا، كان مع **دستوت دي تراسي**[*] (Destuot De Tracy) رائد الوضعية سنة 1796، وكان يقصد بالايديولوجيا عملية تحليل الأفكار المأخوذة بصفتها شبيهة بعلم النبات، وعلم الحيوان الطبيعي بهدف دراسة أصول هذه الأفكار وعلاقتها بطريقة تجريبية ومنطقية "[3].

وما نلاحظه من خلال هذا التعريف، أن **دي تراسي** أعطى معنى إيجابي لمفهوم الايدولوجيا، وهو معنى يقارب مهمة الفلسفة أي النقد والتقصي عن الحقيقة، وقد أكد **أندريه لالاند** في موسوعته على هذا التعريف وعلى ارتباط ظهور كلمة إيديولوجيا ب **دي تراسي** في قوله:" إن الايدولوجيا كلمة ابتكرها **دستوت دي تراسي**؛ وهو علم موضوعه دراسة الأفكار بالمعنى العام لظواهر الوعي ومزاياها وقوانينها، وعلاقاتها مع العلامات التي تمثلها وبالأخص أصلها"[1]، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا دعي **دي تراسي** إلى دراسة الأفكار(الايدولوجيا)؟ وما هي العوامل التي دفعته إلى ذلك؟

---

[2] – Karl Mannheim: idiology and utopîa, London, 1936, p19.

[*] – دستوت دي تراسي Destut De Tracy فيلسوف و عالم اقتصاد فرنسي ينتمي إلى المذهب الواقعي .

[3] – فيليب برو: علم الاجتماع السياسي، تر: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للنشر، ط/ 1، 1998، ص203 .

[1] – أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، تع: خليل أحمد خليل، إش: أحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت، باريس، (د،ت)، ص11.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تشير الدراسات أن من العوامل التي دفعت إلى ذلك، هو رفضه هو وزملائه منهم **(قولناي، غارات، دونو)** أفكار الإمبراطور الفرنسي **نابليون**، التي تعبر عن مطامحه الاستعمارية، وقد أشار **لالاند** إلى هذا في قوله:"... كان **ديتراسي** يقول يبدو أن كلمة إيديولوجي جرى ابتكارها بروحية إنكارية نابليون"[2].

أما المفكر **ديفيد هوكس** فيؤكد أن **دي تراسي** توصل إلى هذا المعنى الذي حدده لمفهوم الايدولوجيا، من خلال تأثره بأفكار كل من **جون لوك وكوندياك** "... حيث توصل **دي تراسي** بعد قراءته لفلسفتهما إلى أنه لا توجد أفكار فطرية ما دام كل فكر مستمد من الإحساس، واعتقد أيضا بأنه لا شيء يوجد بالنسبة لنا إلا بواسطة الأفكار التي نمتلكها عنه لأن أفكارنا هي كينونتنا بأكملها، وهي وجودنا نفسه"[3]. بمعنى أن **دي تراسي** رفض الميتافيزيقيا التي كانت الفلسفة غارقة فيها، وتأثر بدعوة **كوندياك** التي تسعى إلى تقييم العلوم والثقافات على أسس أنثروبولوجية وسيكولوجية، وبهذا يكون **كوندياك** قد سبق **دي تراسي** في الدعوة إلى دراسة الأفكار، إلا آن ما تميز به **دي تراسي** في مسعاه هذا ،هو أن عملية دراسة الأفكار لديه أخذت طابعا مؤسساتيا من أجل فهم المجتمع الفرنسي، والذي كان مواطنوه من الطبقة المثقفة، يهتمون بدراسة العلوم الأخلاقية السياسية .

ولكن هذا المعنى الايجابي لمفهوم الايدولوجيا تغير مع مجيء الإمبراطور الفرنسي **نابليون**، والذي أطلق عليه الفلاسفة المعارضين لأفكاره وأطماعه الاستعمارية اسم **الإيديولوجيون** احتقارا لهم، فأصبح الفيلسوف في نظرة صاحب الايدولوجيا أي صاحب أفكار وهمية ظلامية (أدلوجة) لا صلة لها بالواقع، وهكذا أصبح مصلح إديولوجي يطلق على كل تفكير تافه، وهمي بعيد عن الواقع، وقد اعتبر **نابليون** أن تفكير الفيلسوف بعيد عن الواقع والنشاط العملي " ويذكر **مانهايم** في هذا المجال، أن نابليون كان متخوفا من آن يفضح الفلاسفة المنقبون عن الحقيقة، طموحاته وأطماعه الاستعمارية، ويكشفون القناع عن الأهداف الوضعية وراء احتضانه للفاتيكان، فأطلق عليهم اسم **الإيديولوجيون**، وبهذا اتخذت الكلمة معنى تحقيريا واحتفظت به حتى اليوم "[1]. وفي القرن الثمن عشر أطلق هذا المفهوم على المذاهب الفلسفية التي كانت تطمح للتفكير بالنظام الاجتماعي، أي أن الايدولوجيا كانت تعني الأفكار المسبقة الموروثة من عصور الجهل والاستعباد، حيث اعتبر فلاسفة الأنوار الايدولوجيا هم، تلك الأوهام التي كان يستغلها المتسلطون من النبلاء والرهبان لمغالطة عموم الناس، ومنعهم من اكتشاف الحقائق.

---

[2] – المرجع نفسه، ص611.

[3] – ديفيد موكس: الايديولوجيا، تر: إبراهيم فتحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص46.

[1] – كارل مانهايم: الايدولوجيا واليوتوبيا، مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، تر: محمد رجا الدريني، شركة المكتبات الكويتية، ط/1، 1980، ص145 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وجاء كارل ماركس (Karl Marx) بمفهوم أخر للايدولوجيا " حيث ربط هذا المفهوم بالوقائع الاقتصادية وعلى كل ما يكون تمثلا أو اعتقاديا، ما يكون نسقا فلسفيا أو نسقا دينيا"[2]، أي أنه اعتبر كل ما هو تصور عقلي أو مذهب فلسفي، أو عقيدة دينية أو قيما خلقية، مجرد إديولوجيات، وبهذا أصبح مفهوم الاديولوجية يطلق على كل تفكير بعيدا عن الواقع احتقارا له، وفي هذا يقول **كارل ماركس:**" الإيديولوجية انعكاس مقلوب ومشوه وجزئي ومبتور للواقع، وهي بذلك تعارض الوعي الإنساني الحقيقي"[3]، وهنا تأكيد على أن التفكير الإيديولوجي هو التفكير المتجاوز للواقع، كما يؤكد أن الايدولوجيا تُعبر عن طبيعة الأفكار التي تعكس مصالح الطبقة الحاكمة المناقضة لطموحات الطبقة المحكومة، فالطبقة الحاكمة في نظره تتصرف دائما بوسائل الإنتاج المادية، كما لها سلطة أيضا على الفكر وهذا ما يتضح لنا في قوله:" إن البعض هم مفكرو الطبقة (إيديولوجيوها) الفاعلون، القادرون على التصور، الذين يجعلون من أعدائهم وهم الطبقة المحكومة عن ذاتها المصدر الرئيسي لمعيشتهم، بينما موقف الآخرين حيال هذه الأفكار والأوهام موقف أشد انفعالية وأعظم استقبالا، لأنهم في واقع الأمر أعضاء هذه الطبقة النشيطون، ووقتهم أقل اتساعا من أجل صنع الأوهام والأفكار على أنفسهم"[1]. بمعنى أن **كارل ماركس** يؤكد على أن الطبقة المسيطرة في المجتمع هي الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج، تعرض أفكارها وتستقطب كل أشكال التفكير الموجود في المجتمع، فتنتقل من الهيمنة المادية إلى الهيمنة الفكرية، أما الطبقة التي لا تمتلك وسائل الإنتاج فهي الطبقة الخاضعة للطبقة المالكة، ويعتبر **كارل ماركس** أن الأفكار المهيمنة هي إديولوجيا، وقد انتقد الليبرالية واعتبرها إديولوجيا تسعى إلى الهيمنة والسيطرة لتحقيق منافع طبقة النبلاء والبرجوازيين على حساب الطبقات الأخرى، فالطبقة البرجوازية المتحكمة في اقتصاد المجتمع تجعل من الايدولوجيا أداة للتعبير عن مصالحها، كما عاب على فلاسفة الأنوار دعوتهم إلى الفردانية، واعتبرها ترسيخا للرأسمالية، بل واتهم هؤلاء الفلسفة أنهم برّروا الفكر الرأسمالي حفاظا على مصالح الطبقة البرجوازية، ورغم أن **كارل ماركس** قد تشبع بثقافة فلسفة الأنوار إلا أنه لم يأخذ معنى مفهوم الايدولوجيا من الفكر التنويري، بل أخذه من الأوساط الاشتراكية الباريسية، والتي ظهرت فيها كلمة إيديولوجية بمعنى التفكير اللاعقلاني واللانقدي، وفي كتابة (الإيديولوجيا الألمانية) الذي ألفه مع زميله **إنجلز** نجده يوجه نقدا للفلاسفة الألمان، أو كما يطلق عليهم اسم فلاسفة اليسار الهيغلي؛ منهم **فيورباخ**، فاتهم فكرهم بأنه إيديولوجيا أو أدلوجة (وهنا إشارة منه إلى أن الفلسفة الألمانية أنتجت الايدولوجيا) تقف حائلا دون إدراك الإنسان لحقيقة الواقع، كما انتقد **فريديريك هيغل** كونه استخدم فلسفة الأنوار في فهم الواقع، معتبرا أن عقلانية فلسفة الأنوار كانت لها فعالية في فهم الواقع، ولكن في تلك الحقيقة التاريخية التي تواجدت فيها

---

[2] – اندريه لالاند: موسوعة لالاند، مرجع سابق، ص612

[3] – فرديريك معتوق: تطور علم اجتماع المعرفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط/1، 1982، ص102

[1] – كارل ماركس، فديريك أنجلز: الاديولوجية الألمانية، تر: د/فؤاد أيوب، دار دمشق للنشر، دمشق، ص56

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذه الفلسفة، غير أنها لا تصلح لفهم الواقع المستحدث – أي المجتمع الألماني آنذاك– وأكد أن لكل حقبة تاريخية حيثياتها وخصوصياتها، وبالتأكيد وجب أن يرتبط الفكر باليسار الاجتماعي والتاريخ السائد وكل فكر لا يتسلح بفكر زمانه هو إيديولوجيا مخادعة، وما ينبغي الإشارة إليه أيضا أن **كارل ماركس** لم يربط الفكر بالجانب الاقتصادي فقط بل ربطه أيضا بالحياة الاجتماعية، وهذا ما أشار إليه في قوله:" إنه ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل على العكس إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم"

وحتى أنصار الماركسية اعتبروا الإيديولوجيا مرتبطة بالوقائع الاقتصادية، وفسروا الأفكار والمذاهب بالرجوع إلى القوى الاقتصادية علاقات الإنتاج، واعتبروا أن المطالب الفكرية إنما تُعبر عن الطبقات الاجتماعية، غير أن ما ينبغي الإشارة إليه هو أنه رغم اتفاق علماء الاجتماع مع **كارل ماركس** حول ضرورة تحليل مطالب الفكر عن طريق التحليل الإيديولوجي، وكذا التأكيد على دور العامل الاجتماعي في تحديد العقلية الغالبة في المجتمع، إلا أنهم يختلفون معه في كون أن الطبقة البروليتارية هي الوحيدة التي يمكنها فضح الإيديولوجيات، ويروّن أن لكل وضع تاريخي حقائقه وخصوصياته، ولا يمكن أم تكون طبقة واحدة مالكة للحقيقة التاريخية بل كل طبقة من الطبقات أصبحت تستعمل الإيديولوجيا كسلاح في صراعها مع الطبقات الأخرى، وليست الطبقة البرجوازية وحدها التي تنتج فكرا إيديولوجيا، بل حتى الماركسية وقد تشبعت الشيوعية بالإيديولوجية الماركسية.

وفي محاولة منه لضبط معنى الإيديولوجيا، قسّم **كارل مانهايم** هذا المفهوم إلى قسمين: إيديولوجيا جزئية خاصة وأخرى كلية شمولية، أما الأولى فتمثل: الكذب والتزييف المقصود أو غير المقصود الذي يقوم به الفرد، وله أسباب شعورية ولا شعورية، إذ يخفي نواياه وأهدافه الحقيقية وراء سلوكه أو موقفه وتصوراته، مما يجعلنا نحكم على أفكاره وسلوكياته بأنها إيديولوجية، ونفسر سلوكه هذا بالرجوع إلى التحليل السيكولوجي لمعرفة دوافع كذبه، أما المعنى الكلي للإيديولوجيا أو النوع الثاني منها فهو يرتبط بتفكير طبقة أو جماعة أو حقبة تاريخية، أي مجموع التصورات والأفكار التي تعتنقها طبقة اجتماعية أو جماعة، تُظهر من خلالها موقفها مما هو سائد في المجتمع أي أنها الإطار الفكري العام لطبقة ما، أو لجماعة ما، أو لمذهب فكري ما ورغم هذا الاختلاف القائم بينهما إلا أنهما يتفقان على عدم قبول رأي الخصم وأفكاره على إنها حقائق، وكذا ضرورة كشف ما تخفيه أفكاره ومواقفه من بواعث وأهداف، وتحليل الظروف الاجتماعية التي أحاطت بالفرد أو الجماعة، لأن هذه التصورات تقنعه لا يمكن الكشف عن حقيقتها إلا بالرجوع إلى الواقع الاجتماعي الذي يعيشه صاحبها.

وبهذا يؤكد **كارل مانهايم** على ارتباط الفكر بالمجتمع قائلا:"... تلك هي مقولة الارتباط أو الالتزام من حيث أن لكل جماعة ارتباطا غير مباشر ببعض الأشكال أو الأساليب الفكرية"[(1)]، وفي كتابة (الإيديولوجيا واليوتيوبيا) يفرق **كارل منهايم** بين اليوتيوبيا والايدولوجيا، فيؤكد أن الأولى تمثل فكر

---

(1) - K. Mannheim: problem of social, Kanwledge, P184.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الطبقات المعارضة التي تسعى إلى التغيير والمالكة للفكر الثوري، أما الايدولوجيا فهي فكر الطبقات التي تسعى جاهدة إلى الدفاع عن السلطة الحاكمة، أي أنها " ذهنية الفئات الاجتماعية إبان تحجرها في مصالحها واستلامها زمام السلطة"[2]، كما يرى **منهايم** أن الفئة الوحيدة التي يمكنها فهم حقيقة الواقع الاجتماعي ونقدها جميع الإيديولوجيات وجمعها في منظومة فكرية شاملة، هم فئة المثقفون المتحررون من أي توجه سياسي، وهنا يتبين لنا اختلاف أخر بين **كارل ماركس** و**مانهايم** حول علاقة الفلسفة بالايدولوجيا، فأما الأول فقد اتهم الفلسفة بأنها منتجة للايدولوجيا بمعناها السلبي، أي الفهم المزيف للواقع، في حين **كارل منهايم** جعل الفكر الفلسفي متحررا من أي انتماء سياسي هو وحده القادر على نقد الإيديولوجيات وصهرها في بوتقة واحدة، وأنه الوحيد الذي بإمكانه فهم الواقع على حقيقته، وإن كان **كارل ماركس** قد اعتبر الايدولوجيا هو الفهم المتعمد الخاطئ والمزيف للواقع،" فإن **ألتوسير** يؤكد إن الايدولوجيا ليست وعيا وإنما هي في جوهرها لا شعورية حتى وإن قدمت لنا نفسها في شكل واع"[3].

وإن كان **ألتوسير** يعتبر الايديولوجيا منفصلة عن الوعي، فإن **زاموشكين سولوفيوف موتروشيكوفا** يؤكد على الترابط الموجود بين الفلسفة والايديولوجيا، وهو ترابط ايجابي ويعطينا مثالا عن الماركسية اللينية التي عالجت قضايا فلسفية وربطت بين الفلسفة الايدولوجيا فيقول:"... إن **لينين** اهتم في الوقت ذاته أيضا بالدراسة المعمقة لقضايا المنطق الديالكتيكي في عامي (1915–1916)، وكانت تلك هي فترة الحرب العالمية الأولى والمعارك الايدولوجيا الحامية عندما اتضح الإفلاس الفكري السياسي للانتهازية اليمينية في الأممية الثانية، وعندما انطرحت بكل حدة مسألة التحليل النظري، والتقييم الفكري للسمات والعمليات الجديدة مبدئيا في نظام الرأسمالية، وتبعا لذلك المهام الجديدة للحركة الثورية للطبقة العاملة، وكان من الواضح لـ **لينين** أن السمات الموضوعية للعصر الجديد لا يمكن أن تحلل نظريا وتعكس بصورة شاملة، ومتطابقة في منظومة الايدولوجيا بدون أن تتطور وتتجدد على نحو إبداعي أساليب ومناهج عملية المعرفة، ولقد استوعب **لينين** نحو خلاف تاريخ الفكر الديالكتيكي بتاريخ الفلسفة، ولاسيما مؤلفات **هيغل** وتمثلت النتيجة المباشرة لهذا العمل الضخم الذي استمر سنتين تقريبا (في الدفاتر الفلسفية)، والأهم من ذلك إن النتيجة الواضحة لذاك العمل؛ هي قيام **لينين** بالمعالجة الإبداعية لقضايا الايدولوجيا، المرتبطة بدراسته الامبريالية، وكانت نتيجة ذلك العمل أيضا وضح النظرية الجديدة للثورة الاشتراكية (...) إن الأمثلة من هذا النوع تساعد على فهم الآلية المعقدة للتفاعل بين العمل النظري في مجال الإيديولوجية، وبين العمل في مجال الفلسفة، وإن هذه الصلة ليست من قبيل الصدفة فالفلسفة هي شكل تكاملي للوعي الاجتماعي، تتضمن نظرية عن العالم ونظرية المعرفة أيضا"[1]، وفي هذا النص يشير

---

[2]– فريدريك معتوق: تطور علم الاجتماع والمعرفة، مرجع سابق، ص158

[3] – عبد السلام سعيد العالي: الميتافزيقا، العلم والايديولوجيا، دار الطبع للنشر، بيروت، ط/2، (د.ت) ص95.

[1] – زاموشكين سلوفيوف موتروشيلوفا: الفلسفة والعلمية الثورية، مرجع سابق، ص276

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

زاموشكين أن **لينين** توصل إلى فكرة مفادها؛ أن فهم حقيقة الواقع لا يتأتى إلا بالرجوع إلى الفلسفة، وإلى استخدام مناهجها وتصوراتها في المعرفة ومن جهة أخرى أكد **زاموشكين** أن الايديولوجيا كان لها تأثيرا قوي في تنشيط الفكر الفلسفي فيقول:"... ويكفي التذكير بأن عملية الصياغة الايديولوجيا الماركسية اللينينية الثورية قد أثرت على سير النشاط النظري اللاحق ونتائجه الملموسة في مجال الفلسفة والاقتصاد السياسي، وعلم الاجتماع وعلم التاريخ والعلوم الطبيعية، وتجدر الإشارة إلى أن التأثير المتبادل بين الأطر المستقلة نسبيا للنشاط النظري؛ تتحقق ليس فقط عبر الاتصالات المباشرة داخل الفكر النظري، بل وأيضا عبر مجال الممارسة الاجتماعية التاريخية وعبر مجال الوعي، ومثل في هذه الحالة يؤثر الفكر النظري مجال الايديولوجيا على الوعي الجماهيري الرأي العام، والممارسة الاجتماعية وهذه تأثر بدورها على تطور الفلسفة والعلوم الملموسة"[2].

وإن كان **لينين**؛ على حد قول **زاموشكين** ربط بين الفلسفة والايديولوجيا، ورأى أن كل منهما يؤثر في الآخر، وأكد على دور الفلسفة في فهم حقيقة الواقع وكذا تأثير الايديولوجيا على باقي العلوم النظرية الأخرى، فإن هناك من يربط الايدولوجيا اليوم بالفكر السياسي فقط أو بالجانب السياسي، وبالأحزاب السياسية، فأصبح العمل السياسي عمل إيديولوجي، وفي الفكر العربي يتناول الدكتور **عبد الله العروي** موضوع الايدولوجيا والفكر في كتابة (مفهوم الايديولوجيا)، حيث يتحدث عن ثلاث أنواع من الإيديولوجيات وحدد لكل نوع خصائصه، أما النوع الأول فهو ما أطلق عليه اسم الايديولوجيا المقنعة " والتي ترتبط بالعمل السياسي ،تخفي حقيقة أفكارها وأهدافها، وتعمل على كسب أنصارها وتسعى جاهدة إلى طمس الحقائق عن خصومها، أما النوع الثاني من الايديولوجيا التي أشار إليها **العروي** في كتابه السالف الذكر فهو الايديولوجيا الكونية الشمولية، وهي تحمل رؤية شمولية للواقع تهدف إلى أن يؤمن بها جميع الناس، وهي بهذا عكس الإيديولوجية المقنعة التي تستهدف فئة معينة، كما أن الإيديولوجية الكونية متحررة من النزعة السياسية "[1]، وحتى يوضح معنى الإيديولوجية الكونية بدقة أعطى أمثلة عن نماذج فلسفية رأى أنها تمثل إيديولوجية كونية، أو أنها أدت إلى ظهور إيديولوجية كونية منها " فلسفة **هيغل**، إذ أن حديث هذا الأخير عن روح العصر أدى إلى ظهور ما سماه **العروي** الإيديولوجية العقلانية، وكذلك الفلسفة الذهنية لـ **ماكس فيبر** ومبادئ الثورة الفرنسية كلها أدت إلى ظهور الإيديولوجية العقلانية "[2].

وما نستنتجه من قوله هذا هو اعترافه بدور الفلسفة في ظهور الايديولوجيا، وهذا ما أكده من خلال النماذج التي ذكرها أنفا، أما النوع الثالث من الايديولوجيا التي قصدها هو " الإيديولوجية المعرفية،

---

[2] – المرجع نفسه، ص.ص:276-277.

[1] – د/عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط5، 1993، ص53

[2] – المرجع نفسه، ص53.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لها ارتباط بعلم الظواهر وهي بحث معرفي يهدف للوصول إلى حقائق الكون من خلال تحليل الظواهر والأفكار"[3].

ويربط الدكتور **عبد الله العروي** بين الإيديولوجية المعرفية والاقتصاد قائلا:" لم يرى علم الاقتصاد ذاته كنتيجة تطور له بداية، وقد تكون له نهاية، بل نظر إلى ذاته كحقيقة مطلقة أولية، وهكذا أضحى قابلا للتدريج، كان أدلوجة ثورية في ظروف القرن الثامن عشر فقوض أركان النظام التقليدي، ولا يصل الاقتصاد إذا إلى مستوى العلم إلا إذا وضع ذاته في إطار التاريخ. إن نظرية رأس المال هي أساس العلم، لأنها كشفت المفاهيم التي مكنّت الإنسان من إدراك ذاته ككائن حي متتبع"[1].

أما الدكتور الفلسطيني **أحمد برقاوي** فقد حدد في مقال له بمجلة العرب العلاقة بين الفلسفة والإيديولوجيا قائلا:" إن الإيديولوجيا إذ تستعير من كل إشكال الوعي مادتها المعرفية، من العلم والدين والفلسفة والتاريخ، فإنها تقوم بترتيب ما بين هذه المواد المعرفية وعندها تكون حاجتها إلى الفلسفة كبيرة لكي تعطي لنفسها طابعا كليا عاما، إنها تأخذ من الفلسفة بعض مفاهيمها بعد أن تفقدها دلالاتها الفلسفية، ووظيفتها الفلسفية، وتحولها إلى وظيفة إيديولوجية، هذا ما فعلته الفاشية عندما أخذت فلسفة الدولة من **هيغل**، وهذا ما فعلته النازية عندما استعارت مفهوم **السوبرمان** من **نيتشيه**، وهذا ما فعله **فوكوياما** عندما أخذ عن الفيلسوف الروسي الفرنسي **كوجييف** تطويره لفكرة نهاية التاريخ الهيغلية. هذا يعني أن الإيديولوجيا بحاجة إلى الفيلسوف، كي يعزز أطاريحه الإيديولوجية بفكرة فلسفية كلية ولكن بعد أن يقتلعها من سياق الفلسفة ويسكنها منظومة الإيديولوجية، وإذا كان الإيديولوجي محتاجا إلى الفيلسوف، فإن الفيلسوف على العكس من ذلك يسعى لتشكيل عقل متحرر من الإيديولوجية"[2].

وما نخلص إليه بعد هذا العرض الذي تضمن إشارة إلى أهم الآراء التي تناولت العلاقة بين الفلسفة والإيديولوجيا، أنه وإن كانت جل الآراء قد اتهمت الفلسفة بأنها منتجة للإيديولوجيا من خلال المفاهيم والتصورات التي تطرحها، خاصة في مجال الفلسفة السياسية، فإننا نؤكد أن الإيديولوجيا بمفهومها الضيق أضحت تحمل دلالة التمويه وتزيف الحقائق وإخفائها، وقد ارتبط هذا المفهوم اليوم وبشكل كبير بالأحزاب السياسية، التي تتوجه إلى استخدام المنتوج الفلسفي لإضفاء المشروعية على أفكارها وأهدافها، آما الفلسفة فكرها حر شمولي يسعى دوما إلى الكشف عن الحقائق وفهم الواقع فهما منطقيا، ومن ثم توعية الناس ودفعهم للبحث دوما عن المعرفة الحقيقية، وفهمه الواقع والذات فهما منطقيا بعيدا عن كل زيف، ومنه فإننا نرى أن العيب ليس في ما تنتجه الفلسفة من مفاهيم وتصورات، وإنما العيب في من يسئ استخدام

---

[3] – نفسه، ص79.

[1] – المرجع السابق، ص82.

[2] – د/ أحمد برقاوي: العلاقة بين الفلسفة والإيديولوجيا، مجلة العرب، العدد10381، لندن، ص14

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ما تنتجه الفلسفة وتحويله إلى إيديولوجيا وفكر مصلحي ضيق فالفكر الفلسفي يسمو فوق كل التوجهات استغلالية.

قائم المراجع:

ديفيد هوسك: الايديولوجيا، تر: إبراهيم فتحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.

زاموشكين سولوفيوف موتروشيلوفا: الفلسفة والعلمية الثورية، تر: الدكتور فهد كم نفش، دار التقدم للترجمة، موسكو، 1982.

عبد السلام سعيد العالي: الميتافيزيقا، العلم، الإيديولوجية، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط/2، (د.ت).

عبد الله العروي: مفهوم الإ يديولو جية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط/5، 1993. .

فريدريك معتوق:علم اجتماع المعرفة، دار الطليعة للمطبعة والنشر، بيروت، ط/1، 1982.

فليب برو: علم الاجتماع السياسي، تر: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للنشر، ط/1،1998.

كارل ماركس، فريدريك انجلز: الإيديولوجية الألمانية، تر: د/فؤاد أيوب، دار دمشق للنشر، دمشق، (د.ت).

منهايم كارل: الايدولوجيا واليوتوبيا، مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، تر: محمد رجا الدريني، شركة المكتبات الكويتية، ط/1، 1980.

المراجع باللغة الأجنبية:

Karl Mannheim: ideology and utopia, London, 1936.

Karl Mannheim: problem of social, knowledge.

الموسوعات والمجلات:

أندريه لالاند: موسوعة لالاند: الفلسفية، المجلد الثاني، تعريب خليل، أحمد خليل، إشراف: أحمد عويدات، منشورات أحمد عويدات، بيروت، باريس، (د.ت) .

مجلة العرب، لندن، العدد10381، 30-08-2016.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com